﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ٦٣ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ٦٤﴾ [طه: 63 - 64]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

يُبتلى المرءُ بعداوة مَنْ أرضاه بسخط الله

لَمَّا ذكر في الآية السابقة تنازعَهم وإسرارهم حول ما أرادوا إعلانَهُ والجهرَ به؛ بيَّن في هذه الآية خطابَهم وكَلِمَتَهم التي أعلنوها أمام الجمهور، وفيها تسجيلٌ لموقفهم ضدَّ موسى وهارون ﷺ، فجاء تصريحًا قادحًا أرادوا به كسْبَ موقفٍ بالزور والبهتان أمام فرعونَ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَسَٰحِرَٰنِ﴾: (سحر) أَصْلٌ يَدُلُّ على خَدْعٍ وشِبْهه[1]، وحقيقةُ السِّحْرِ صَرْفُ الشَّيءِ عن حَقيقَتِه إلى غَيْرِه، فكأَنَّ السَّاحِرَ لَمَّا أَرَى الباطلَ في صورَةِ الحَقِّ، وخَيَّلَ الشَّيءَ على غيرِ حَقيقَتِه، قَدْ سَحَرَ الشَّيءَ عن وجْهه، أَي: صَرَفَهُ[2]، تَقول العَرَبُ للرَّجُل: ما سَحَرَكَ عَن وجْه كَذا وكَذا؟ أَي: ما صَرَفَك عَنهُ[3]، والسِّحْرُ: تَخْييلُ ما لَيْسَ بكائِنٍ كائِنًا، ورجلٌ ساحِرٌ مِنْ قَوْمٍ سَحَرَةٍ، والسَّاحرُ: العالِمُ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الزخرف: 49]، يعني: العالم الفَهم، وسَحَرَهُ أيضًا، بمعنى: خَدَعَهُ، وكذلك؛ إذا عَلَّلَهُ[4]، والمقصود بالسَّاحِرِ في الآية: فاعِلُ السِّحْرِ.

2) ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ﴾: أصلُ الطَّريقِ: السَّبيلُ الَّذي يُطْرَقُ بالأَرْجُلِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سحر).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سحر).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (سحر).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (سحر).

أي: يُضربُ، وعنه استُعير كلُّ مسلك يسلكه الإنسانُ في فِعْلٍ، محمودًا كان أو مذمومًا[1]، والطَّرِيْقَةُ: الحالُ، ومن خُلُقِ الانسانِ: لِيْنٌ وانْقيادٌ، وإنَّ في طَرِيْقَتِه لَعِنْداوةً، أي: في لِيْنِه بَعْضُ العُسْرِ، ويُقال: طِرِيْقَةٌ أيضًا، والطَّرِيْقَةُ: أماثِلُ القَوْمِ، هؤلاء طَرِيْقَةُ قَوْمِهم، والجميع طَرائقُ[2]، والمُرادُ بالطريقة في الآية: السُّنَّةُ والعادَةُ شُبِّهَتْ بالطَّرِيقِ الَّذي يَسيرُ فيه السَّائر، بجامِعِ المُلازَمَةِ[3]، وقيل المعنى: (بجَماعتِكم الأشراف)، فإنَّ الطريقةَ اسمٌ للأفاضِلِ على معنى: أنَّهم الَّذين يُقتَدى بهم، ويُتَّبَعُ آثارُهم[4]، والأوَّل أولَى، واللّٰه أعلم.

3) ﴿ٱلْمُثْلَىٰ﴾: (مثل) أَصْلٌ يَدُلُّ على مُناظَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، وهذا مِثْلُ هذا، أَي: نَظيرُهُ، والمِثْلُ والمِثالُ في مَعْنًى واحِدٍ[5]، والمُثْلَى: مُؤَنَّثُ الأَمْثَلِ، وهو اسْمٌ تَفْضيلٍ مُشْتَقٌّ مِنَ المَثالَةِ، وهيَ حُسْنُ الحالَةِ، يُقالُ: فُلانٌ أمثَلُ قَوْمِه، أَيْ: أَقْرَبُهُم إِلَى الخَيْرِ، وأَحْسَنُهُم حالًا[6]، وهَؤُلاءِ أَماثِلُ القَوْمِ، أَيْ: خيارُهُم[7]، والمُراد بالمثلَى بالآية: تأنيثُ الأمثلِ، وهو الأفضلُ.

4) ﴿فَأَجْمِعُواْ﴾: (جمع) أَصْلٌ يَدُلُّ على تَضامٍّ الشَّيْءِ، يُقالُ: جَمَعْتُ الشَّيْءَ جَمعًا[8]، وأَجْمَعْتُ على الأَمرِ إِجْماعًا وأَجْمَعْتُهُ، والإجماعُ الإحْكام والعَزيمَةُ على الشَّيْءِ، تَقولُ: أَجمعت الخُروجَ، وأَجمعت على الخُروجِ، والإجْماعُ أيضًا: إحكامُ النِّيَّةِ والعَزيمةِ، أَجْمَعْتُ الرأْيَ، وأَزْمَعْتُه، وعزَمتُ عليه بمَعْنًى[9]، والمرادُ بقوله: ﴿فَأَجْمِعُواْ﴾ في الآية: أَمرٌ مِنْ: أَجْمَعَ أَمرَهُ؛ إذا جَعلهُ مُتَّفقًا عليه لا يُخْتَلَفُ فيه[10].

5) ﴿كَيْدَكُمْ﴾: (كيد) أَصْلٌ يَدُلُّ على مُعالَجَةِ لِشَيْءٍ بشِدَّةٍ، قالَ أهلُ اللُّغَةِ: الكَيْدُ: المُعالَجَةُ، قالوا: وكُلُّ شَيْءٍ تُعالِجُهُ؛ فأَنْتَ تَكيدُهُ[11]، هذا هو الأَصْلُ في البابِ، ثُمَّ يُسَمّونَ المكْرَ كَيْدًا، قال اللّٰه تعالَى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطور: 42]، ويَقولونَ: هو يَكيدُ بنَفْسِه، أَي:

(1) الراغب، المفردات: (طرق).
(2) ابن عباد، المحيط في اللغة، والجوهري، الصحاح: (طرق).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 255.
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن: 280، والواحدي، البسيط: 14/ 450، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 220.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مثل).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 255.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مثل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جمع).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (جمع).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 255.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (كيد).

يَجودُ بها، كأنَّهُ يُعالِجُها لتَخْرُجَ، والكَيْدُ: صياحُ الغُرابِ بجَهْدٍ[1]، والكَيْدُ: أَنْ يُخْرِجَ الزَّنْدُ النَّارَ بِبُطْءٍ وشِدَّةٍ، والكَيْدُ: القَيْءُ، ورُبَّما سَمَّوُا الحَيْضَ كَيْدًا، والكَيْدُ: الحَرْبُ، يقالُ: خَرَجوا، ولم يَلْقَوا كَيْدًا، أَيْ: حَرْبًا[2]، والمقصودُ بالكَيْدِ في الآية: إخفاءُ عَمَلٍ يَضُرُّ المَكيدَ.

6) ﴿أَفْلَحَ﴾: (فلح) أَصْلٌ يَدُلُّ على فوْزٍ وبَقاءٍ، الفَلاحُ: الفوز والنَّجاة والبَقاء، والسَّحورُ قالوا: سُمّيَ فلاحًا؛ لِأَنَّ الإنْسانَ تَبْقَى مَعَهُ قوَّتُهُ على الصَّوْمِ، يقول الرَّجُل لامرأته: اسْتَفْلِحي بأمرِك، أي: فوزي بأمرك[3]، والفَلاحُ أيضًا: النَّجاحُ بحُصولِ المَطْلوبِ، والخَيْبَةُ ضِدُّهُ، يُقال: أَفْلَحَ وأنجحَ؛ إذا أدْرَكَ مَطْلوبَهُ، ومِنْهُ حَيَّ على الفلاح[4]، والمقصودُ بالفَلاحِ في الآيةِ: الظَّفَرُ بالمَطْلوبِ مِنْ عَمَلِ العامِلِ.

7) ﴿ٱسْتَعْلَىٰ﴾: (علو) أَصْلٌ يَدُلُّ على السُّموِّ والارْتِفاعِ، لا يَشِذُّ عنهُ شَيْءٌ[5]، قال الخليلُ: "أَصْلُ هَذا البِناءِ العُلُوُّ، فأمَّا العَلاءُ؛ فالرِّفْعَةُ، وأَمَّا العُلُوُّ؛ فالعَظَمَةُ والتَّجَبُّرُ، يَقولونَ: عَلا المَلِكُ في الأَرْضِ عُلُوًّا كَبيرًا، قالَ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: 4]، ويَقولونَ: رَجُلٌ عالي الكَعْبِ، أَيْ: شَريفٌ"[6]، العُلْوُ: ضِدُّ السُّفْلِ، والعُلْوِيُّ والسُّفْلِيُّ المنسوبُ إليهما، والأَعْلى: الأشرفُ والأفضلُ، والاسْتِعْلاءُ في الآية: قد يكون طلبَ العلوِّ المذموم، وقد يكون طلبَ العلاءِ، أي: الرِّفعةِ، والوجهان مُحتَمَلانِ[7]، فقوله: ﴿ٱسْتَعْلَىٰ﴾ مُبالَغَةٌ في: عَلا، أَيْ: عَلا صاحِبَهُ، وقَهَرَهُ، فالسّينُ والتّاءُ لِلتَّأْكيدِ[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قالَ السَّحرةُ: ما موسى وهارونُ إلَّا ساحرانِ، يريدان أن يُخرِجاكم مِن وطَنِكم؛ أرضِ مِصرَ، بالاستيلاءِ عليها بسِحرِهما الَّذي أظهراهُ، ويَذْهبا بدينِكم وشريعتِكم ومذهبِكم الَّذي هو أفضلُ المذاهبِ، بإظهارِ مذهبِهما، وإعلاءِ دينِهما، قال السَّحَرةُ بعضُهم لبعضٍ:

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (كيد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (كيد).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فلح).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (فلح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علو).
(6) الخليل، العين: (علو).
(7) الراغب، المفردات: (علا).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 257.

فاجتَهدوا في إحكامِ سحرِكم، واعزِموا كُلُّكم على كيدِ موسى، ثمَّ احضُروا مُجتَمِعينَ في صَفٍّ، فقد فاز اليومَ بمَطلوبِه مَنْ غلَبَ خَصْمَهُ، وقَهَرَهُ[1].

أتباعُ الظَّلَمَةِ والباطلِ لن يتوقَّفوا أبدًا عن تشويه الحقِّ وأهله

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملة: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ﴾ على الاستئناف البيانيِّ:

جملةُ ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، جاءت جوابًا على سؤالٍ مقدَّرٍ، كأنَّه سأل سائل: فما نتيجةُ التَّنازع وخلاصة ما استقرَّت عليه آراؤهم بعد التناظر والتشاور؟ فأجيبَ بما قالوه للناس بعد تمام التَّنازُعِ[2]، والاستئنافُ البيانيُّ من دواعي الفصلِ لِشبه كمال الاتصال، وقد يكونُ الفصلُ لكمال الاتِّصال كما سيأتي.

شبهُ كمالِ الاتِّصالِ بين السؤال والجواب

موقعُ جملة: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ﴾ على البدليَّة:

جملةُ: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ بدلُ اشتمالٍ من جملة ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾، والبدليَّةُ موجبةٌ للفصل، وهو من كمالِ الاتِّصال، ووجْهُ البدليَّة: أنَّ إسرارَ النَّجوى يشتمل على أقوالٍ كثيرةٍ ذُكِرَ منها هذا القولُ؛ لأنَّه القولُ الفصْلُ بينهم والرأي الذي خلصوا إليه، فهو زُبْدةُ مَخيضِ النَّجوى، وذلك شأنُ التشاور وتنازُعِ الآراء أن يسْفِرَ عن رأيٍ يصدر الجميعُ عنه[3].

إسرارُ النَّجوى مقولاتٌ خاصَّة يضرُّ تداولها العلنيُّ بأغراض الفوز

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في: ﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ﴾:

القراءات المتواترة الواردة في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ﴾[4]:

أوَّلًا: ﴿إِنَّ هَٰذَٰنِ﴾ بتشديد ﴿إِنَّ﴾ ونصبِ ﴿هَٰذَٰنِ﴾ وهي قراءة أبي عمرو، وجاءت جريًا على الأصل، ويجب نصبُهُ (هذين) بالياء؛

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 106، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 32، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 508.

(2) الآلوسي، روح المعاني: (8/ 532).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 251.

(4) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 321.

لأنَّهُ مثنًّى، و﴿لَسَٰحِرَٰنِ﴾ خبرُها مرفوعٌ بالألف. وتوضع الياء ملحقةً في الضبط، وتكون القراءة موافقة للرسم العثماني تقديرًا.

ثانيًا: ﴿إِنْ﴾ بالتخفيف، ﴿هَٰذَانِ﴾ بالألف، وهي قراءة ابن كثير[1]: وحفص، وتوجيهها: أنَّ الأصل (إنَّ هذين)، فخُفِّفت (إن) بحذف النّون الثانية، وأُهملت، كما هو الأكثر فيها؛ إذا خُفِّفت، وارتفع ما بعدها بالابتداء والخبر، كقولهم: (إنَّ زيدًا قائمٌ)، فإذا خُفِّفت؛ فالأفصحُ أن يقال: (إنْ زيدٌ لقائمٌ) على الابتداء والخبرِ، واللام الفارقة بين (إن) المخفَّفة والنافية.

ثالثًا: ﴿إِنَّ﴾ بالتشديد، و﴿هَٰذَانِ﴾ بالألف، على خلاف الأصل اللغوي المعهود وهي قراءة الباقين؛ لأنَّ ﴿إِنَّ﴾ الثقيلة يجب إعمالُها، فكان الظاهرُ نصبَ ﴿هَٰذَانِ﴾، فتكون (هَذَيْنِ) بالياء، كما في القراءة الأولى، والجواب عنه من وجوه:

الأول: أنَّ ذلك جرى على لغةِ مَن يستعمل المثّى بالألفِ دائمًا، كلغة بَلْحارث بن كعب، وخَثْعَم، وزَبيد، وكِنانة.

الثاني: أنّ ﴿إِنَّ﴾ حرفُ جواب، بمعنى (نعَم)، و(إنَّ) التي بمعنى (نَعَم) لا تعمل شيئًا، كما أنَّ (نَعَم) كذلك، وعليه: فـ﴿هَٰذَانِ﴾ مبتدأٌ مرفوع بالألف، و﴿لَسَٰحِرَٰنِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: لَهُما ساحران، والجملةُ (من المحذوف وخبره) خبرُ ﴿هَٰذَانِ﴾، ولا يكون ﴿لَسَٰحِرَٰنِ﴾ خبرُ ﴿هَٰذَانِ﴾؛ لأنَّ لامَ الابتداء لا تدخل على خبرِ المبتدأ.

الثالث: أنَّ الأصلَ: (إنَّه هذان لَهُما ساحران)، فالهاء ضمير الشأن، وما بعدها مبتدأ وخبر، والجملة في موضع رفْعٍ على أنَّها خبرُ ﴿إِنَّ﴾، ثم حُذف المبتدأ، وهو كثيرٌ، وحُذِف ضمير الشأن.

الرابع: أنَّه لمَّا ثُنّي (هذا) اجتمع ألفان - ألف (هذا) وألف التثنية - فوجب حذْفُ واحدةٍ منهما لالتقاء ساكنين، فمن قدَّر المحذوفةَ ألفَ (هذا)، والباقيةَ ألفَ التثنية؛ قلَبَها في الجر والنصب ياءً، ومن قدَّر العكس؛ لم يغيِّر الألف عن لفظها.

الخامس: لمَّا كان الإعرابُ لا يظهر في الواحد - وهو (هذا) - جُعِل كذلك في التثنية،

(1) وله تشديد النون في (هذان)، يُنظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 321.

ليكون المثنّى كالمفردِ؛ لأنَّه فرَّع عليه، فعاد قوله: ﴿هَٰذَانِ﴾ لأصل مفرده على البناء، على القول ببناء المثنى؛ إذا كان مفردُهُ مبنيًّا[1].

فجمعت القراءات هنا بين درجات التوكيد في الجملة. وهي تظهر الحالة النفسية التي كان عليها فرعون وقومه لتنفير الناس من موسى وأخيه ﷺ، ويعكس صورة من صور التّردّد عند الاتهام.

نكتةُ إسنادِ القولِ لضمير الجمع:

المُـصـادِقُ على القول كالقائل له

إسنادُ القول إلى ضمير الجمعِ في قوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾ يدلُّ على صدوره منهم باللَّفظ نُطقًا أو بالإقرار مُصادَقةً، للانتهاء إلى القناعة الجماعيَّة، بأنَّ النَّبيَّيْنِ ساحران، والجمع على المعنى الأوَّل حقيقةٌ، وعلى الثاني مجاز.

ومجيء فعل القول ماضيًا يدلُّ على أنَّ ما في حيّزه من مَقول صادرٌ بعد اتّهام معدّ سلفًا.

دلالةُ استهلالِ القول بـ﴿إِنْ﴾:

السِّحرُ لا يخرقُ العاداتِ

افتتاحُ مَقولِ القولِ بـ﴿إِنْ﴾ تأكيدٌ من السَّحرة كونَ موسى وهارون ساحرين؛ لتحقيقِ ذلك عند من يخامِره الشَّكُّ في صحَّة دعوتهما، وجعل ما أظهره موسى من المعجزة بين يدي فرعون سحرًا؛ لأنَّهم يطلقون السِّحرَ عندهم على خوارقِ العادات[2].

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم﴾:

التَّعبيرُ بالفعل المضارع يدلُّ على تـجـدُّدِ الفعل عـنـد تـجـدُّد دواعيه

الجملةُ في محلِّ رفعٍ صفةٌ لـ﴿لَسَٰحِرَانِ﴾، والتَّعبيرُ بالفعل المضارع يدلُّ على التَّجدُّد الاستمراريِّ، فضلًا عن دلالته على استحضار الصّورة، والمصدر المؤوَّل ﴿أَن يُخۡرِجَاكُم﴾ في محلِّ نصبٍ مفعولٌ به لـ﴿يُرِيدَانِ﴾.

(1) ابن هشام، شرح شذور الذهب، ص: 79.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 254.

بلاغةُ المُحاكاةِ في الاتِّهام:

التقليدُ آفةٌ في عقل المُقلِّدِ وإرادته

قولُهم: ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾ تَبِعوا فيه مقالةَ فرعون: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ﴾[1]، وفيه إشارةٌ إلى ذمِّ التقليدِ من غير برهانٍ، وفيه التَّعريضُ بنقص عقولهم؛ لأنَّ المجاراةَ والتقليد على هذا النحو تُهْمَةٌ للمقلِّد في عقله، فكأنَّ اتِّهامهم لموسى - على غرار اتِّهام فرعونَ له - عاد عليهم بالتُّهمة والازدراء لهم.

معنى ﴿مِّنْ﴾ في قوله: ﴿مِّنْ أَرْضِكُم﴾:

تحتملُ (من) أن تكونَ للابتداء أو للبيان

﴿مِّنْ﴾ هنا ابتدائيَّةٌ، بمعنى: أنَّ إخراجَهم لكم يبدأ بإخراجِكم من أرضِكم، وقد تكون ﴿مِّنْ﴾ للبيان؛ على معنى: أنَّهُ سيخرجُكم مِن دينِكم، ومن أرضِكم، ومن عاداتِكم... ولا عِبرة بما يُقال: إنَّها تأتي مُرادفةً لـ(في) بمعنى (في أرضكم)، أو مرادفة لـ(عن) بمعنى (عن أرضكم)؛ فإنَّه لا تناوبَ بين هذه الحروف على الصَّحيح.

نكتةُ ورودِ شبه الجملة: ﴿مِّنْ أَرْضِكُم﴾:

تلبيسُ الحقِّ لإرادةِ الباطل

شبهُ الجملةِ ﴿مِّنْ أَرْضِكُم﴾ متعلِّقةٌ بالإخراج في قوله: ﴿يُخْرِجَاكُم﴾، ووجهُ التعليقِ بها: التَّنويهُ بأهمّيَّة الارتباطِ بالوطن، كعنصرٍ من عناصر الهويَّةِ، وعامل من عوامل الشَّخصيَّةِ، فإنَّ الإجبارَ على مفارقةِ الأرض، كتفريق الأرواحِ عن أبدانِها بالقتل.

معنى الباءِ في: ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾:

الباءُ في قوله: ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾ للسببيَّة أو الاستعانة أو للملابسة، وقد سبق بيانُ مثلها في قوله: ﴿بِسِحْرِكَ﴾.

تأليبُ العداوات على المُصلحين بخلْقِ الإشاعات وترويجِها

موقعُ جملة: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ﴾ ممَّا قبله:

جملة: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ داخلةٌ في حيّز القولِ،

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 350.

معطوفةٌ على ما قبلَها[1]، وهي تمامُ الزّور والفجورِ الذي شَهدوا به على موسى وهارون ﷺ وأَوْغَروا به صدورَ الحاضرين عليهما.

دلالةُ تعديةِ الفعلِ بحرف الجرِّ:

التعديةُ بالباءِ أبلغُ من التعديةِ بالهمزةِ

لم يَقُلْ في السياق الكريم: (ويُذهبا طريقتَكم) ببناءِ الفعل لغير المعلوم، وتعديتِه بنفسه للمفعول، بل عدَّاه بالباء، وبناءُ الفعل للمعلوم ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ﴾ لتقوية التعدية[2]، ليدلَّ على الاستصحاب والإمساك، ذلك أنَّ التعديةَ بالباء أبلغُ من التعديةِ بالهمزةِ؛ لأنَّ الأولى تقتضي مشاركةَ الفاعلِ للمفعول في الفعل، فأصلُ ذهبَ به: أنَّه استصحبَهُ، كما يقال: ذهبَ السلطانُ بمالِه، وأذهبَ السلطانُ مالَهُ، فالأولى تقتضي أنَّهُ أمسكَ المال عنده، وذهبَ هو كذلك معه، والثانية لا تقتضي اصطحابًا، بل ربَّما أخرج المال عن حوزته بعيدًا عنه، حتى لو انتزعه من غيره، فقوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ﴾ فيه إشارةٌ إلى كمال استحواذِ موسى عليهم وعلى مُلْكِ فرعونَ وسلطانه، حتى يتمكَّنَ تمامَ التَّمكُّنِ من تبديد دينِهم ومحْقِ هويَّتهم، فالتركيبُ مشتملٌ على الكناية كذلك[3].

مجازُ الحذفِ:

المجازُ العقليُّ في حذف المضاف

في قوله: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ﴾ مجازٌ بحذف المضاف، والتقدير: (ويذهبا بأهل طريقتكم)، فنسب إلى المضاف إليه ما كان منسوبًا إلى المضاف، وهو من أبواب المجازِ العقلي، والمرادُ بأهل الطريقة: العمومُ، فيدخلُ فيه الأتباعُ، وهم شعبُ بني إسرائيلَ، والمتبوعون أربابُ المناصب وأصحابُ التصرُّف والمراتب، وهم فرعونُ والملأ[4].

(1) صافي، الجدول: 16/ 386.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4747.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 255.
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 450، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 71، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 536.

الاستعارةُ في لفظ: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ﴾:

المذاهبُ قائمةٌ بأصحابها

معنى ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ﴾، أي: بالأشراف ذوي الوجاهة القائمينَ على المذهبِ الحافظينَ للدّين، وتسميةُ هؤلاء بالطريقةِ استعارةٌ تصريحيَّة لاتِّباعهم، كما يُتَّبَع الطريقُ بجامع السُّلوك والاحتذاء في كلٍّ[1].

الاستعارةُ في التعبير بالطريقة:

العاداتُ مُلتَزَمةٌ

الطريقةُ هي السنَّةُ والعادةُ، شُبِّهت بالطريق الذي يسير فيه السائرُ؛ لجامع الملازمة، ثمَّ أُطلِقتْ على كلِّ ما يُلزَم، ويُتَّبع كالمذهب والدين؛ لأنَّه مُلتَزَمٌ كالعادة[2].

بلاغةُ الوصفِ لتحريضهم:

التَّحريضُ على المصلحين بالزّور والإفك

في قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ وصفَ الطريقةَ بـ﴿ٱلْمُثْلَىٰ﴾ - وهي تفضيلٌ تأنيث (الأمثل) - للدَّلالة على أنَّها أظهرُ الطرائق وأشرفها، ففيه تزكيةٌ لهم باتِّباعهم للأفضل، وتسويغٌ لإظهار عداواتِهم وتجريحهم لموسى وهارون بأنَّهما ساحران؛ لأنَّهما إذا كانا سببًا في إذهابِ الطريقةِ المثلى، فالغضب منهما، والتجريحُ فيهما سائغٌ، وفيه استفزازٌ للمُخاطَبين وتنفيرهم من موسى؛ لأنَّ الذي يهتمُّ بإزاحة الأمثل الأعلى هو حقيقٌ بالتحريض عليه والنُّفور منه.

بلاغةُ الوصف بالمجاز:

الحقُّ مائلٌ لا يتخفّى

وصفُ ﴿ٱلْمُثْلَىٰ﴾ مجازٌ؛ لأنَّ الأمثلَ هو الأشبهُ بالحقِّ، والأظهرُ في الثُّبوت، فسُمّي به الأفضلُ[3] على طريقة الاستعارةِ التصريحيَّةِ، فشبَّهوا الأفضليَّةَ لطريقتهم ومذهبهم على ما سواه، بالشَّيء الماثِل القائم، فلا يعتريه التباسٌ، ولا اشتباه في تعيينه وتحديده، وهو إشارةٌ إلى كونه حقًّا ويقينًا.

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 450، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 536.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 255.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 450.

دلالةُ تأنيثِ (الطريقة):

مراعاةُ الألفاظِ تقتضي صيانةَ المعنى وعدمَ الإخلالِ به

أنَّثَ لفظَ الطريقة في قوله: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ﴾ باعتبار اللَّفظِ لا المعنى؛ لأنَّهُ يرادُ بها الرجالُ، ويصحُّ أن يكونَ التَّأنيثُ على إرادة الجماعةِ، أي: جماعةِ الرِّجال[1]، وفي التأنيث إشارةٌ إلى اليُسر في العادة التي هي من معاني الطريقةِ، فألمحوا إلى أنَّ مذهبَهم سهلٌ في مأخذه، يسيرٌ في تكوينه بخلافِ التذكير.

دلالةُ إفرادِ اسمِ التفضيل ﴿ٱلْمُثْلَىٰ﴾:

مراعاةُ اللَّفظِ في العوائدِ أظهرُ مِن مراعاةِ المعنى

جاء اسمُ التفضيل مفردًا مؤنَّثًا في قوله: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ مراعاةً لِلّفظ لا للمعنى؛ لأنَّ اسمَ التفضيل المعرَّف بـ(الـ) تجب مطابقتُهُ مع الاسم المتقدِّم[2]، وهو (الطريقة)، فلفظُها مفردٌ مؤنَّثٌ، ومعناها جمعٌ مذكَّرٌ.

حسنُ التَّرتيبِ في النَّظمِ:

المُحتالُ يتذرَّعُ بالمُغالطات لا بالحقائق

جاء قوله: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ بديعًا في ترتيبه ونظمه، فافتُتِحَ بالتأكيد، وهذا حالُ المدّعي على غير بيِّنة أن يؤكِّد كلامَهُ لخلوِّه عن البرهان، ثم الاتِّهام بالسحرِ؛ تهوينًا من أمرهما وإعذارًا لأنفسهم منهما، كأنَّهم قالوا: غايةُ أمرهما السِّحر، فإن غُلِبنا منهما؛ فلا بأسَ أن يُغلَب السِّحر بالسِّحر، فلا أفضليَّةَ لهما؛ إذ الأفضليَّةُ تكون بالإعجازِ لا بالسِّحر، ولو غَلَب، ثمَّ نسبوا السحر - أيضًا - لهارون لَمَّا كان مشتركًا معه في الرِّسالة وسالكًا طريقتَهُ، وعلَّقوا الحكم على الإرادةِ في: ﴿يُرِيدَانِ﴾ - وهم لا اطِّلاع لهم عليها - مُغالطةً منهم وتزييفًا ومبالغةً في التَّنفير، فإنَّ الطِّباعَ تنفر من السحر ومن مجرَّد رؤية الساحر، فضلًا عن أن يكونَ مُريدًا متعمِّدًا له مقاربًا

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 220.
(2) صافي، الجدول: 16/ 386.

للتلبُّس به، ثمّ جَعلوا غايةَ سحرهما الإخراجَ من أرضهم، ثم بتغييرِ حالتهم من المناصبِ والرُّتب المرغوب فيها، فتدرَّجوا في التنفير حتى بلغوا مداه[1].

موقعُ جملة: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ ممَّا قبلَهُ:

التصريحُ بالمطلوب إثرَ تمهيد المقدّمات

الفاءُ في جملة: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ فصيحةٌ عاطفةٌ مدخولها على محذوفٍ مقدَّر متفرِّع عن المذكور قبله، أي: إذا كان الأمرُ كما ذُكِرَ من كونِهما ساحِرَين يريدان بكم ما يريدان؛ فأزمِعوا كيدكم، واجعلوه مُجمَعًا عليه بحيث لا يتخلَّف عنه منكم أحدٌ، وارموا عن قوس واحدة، فالفاء رابطةٌ لجواب شرط مقدَّرٍ، والجملة تصريحٌ بالمطلوب إثرَ تمهيد المقدِّمات[2].

دلالةُ الأمرِ في قوله: ﴿فَأَجۡمِعُواْ﴾:

الأصلُ في الأمر أنَّه يفيدُ الوجوبَ؛ إذا كان على جهةِ الاستعلاء؛ فإن كان هذا الأمر من فرعون لسحرته ومَلَئِه، فلا صارفَ له عن الوجوب، وإن كان بين السَّحرةِ أنفسِهم؛ أفادَ الأمرُ هنا التَّحذيرَ بينهم من الخطر القادم.

الأصلُ في الأمر أنَّه يفيدُ الوجوبَ، وقد ينصرف إلى غيره بالقرائن

دلالةُ إجماعِ الكيدِ:

إجماعُ الكيدِ في قوله: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ كنايةٌ عن إحكام العزم واستجماع الهمِّ وانعقاد النِّيَّة، وهو عبارةٌ عن الإرادةِ الخالصة والقصد المتَّحِدِ المتجرِّدِ عن التشتُّتِ والتردُّدِ.

النِّيَّةُ عزمٌ لا يقبلُ التَّردُّدَ والارتياب

موقعُ جملةِ: ﴿ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ﴾ ممَّا قبله:

جملةُ ﴿ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾[3] لإتباعِ القصدِ الباطني بالقلبِ بالقصد الظاهريِّ بالفِعل، ولذا قدَّمَ

الإرادةُ بالقصدِ تسبقُ الإنجازَ بالفعل

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 350.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 26.
(3) صافي، الجدول: 16/ 386.

جمعَ الكيد على إتيانِ الصفِّ؛ لأنَّ الإرادةَ بالقصد مقدَّمةٌ على الإنجاز بالفعل.

بلاغةُ المقابلةِ بين التراكيب:

قوله: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ يتقابلُ مع قوله: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم﴾[1]، والمقابلةُ تدلُّ على أنَّ اختلافَهم كان في بادئ الأمرِ، ثمَّ آلَ إلى الإجماع والاجتماع.

الإجماعُ والاجتماعُ ينتجُ عن القُدرة في إدارة الاختلاف

أسلوبُ المحاكاةِ:

كما أنَّ قولَهُم: ﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا﴾ قد حاكَوا فيه فرعونَ بقوله: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾، فكذلك قولهُم هنا: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ﴾ احتَذوا فيه فرعونَ كذلك، وقلَّدوا حالَهُ، كما في قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾، وهذا التقليدُ في المقال والحال يدلُّ على اتِّباعهم الأعمى لفرعون ورهبتِهم الشديدةِ منه وسلطانه القاهرِ عليهم، فهم لا ينطلقونَ من منطقٍ حقيقيٍّ أو أهليَّةٍ صالحة، بل ينطلقون على عواهنِهم يجترُّهم الخوف، وتسوقُهم المصلحةُ ولو بأدنى شيءٍ منها.

تقليدُ السَّحرةِ لفرعونَ في الأفكار والأقوال

معنى ﴿ثُمَّ﴾:

العطفُ بـ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ﴾، لإفادةِ التراخي الزَّمني؛ لأنَّ إتيانَهم صفًّا في ساحة المناظرة متأخِّرٌ في حصوله، فيستغرقُ وقتًا نسبيًّا بعد استجماعِ أمرِهم بالاستعداد بالخُطَّةِ والجاهزيَّةِ النفسيَّةِ، أو لإفادةِ التراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ تحقيقَ القصدِ بالعمل وإتيانهم صفًّا أهمُّ من مجرَّدِ القصد باستجماع الكيد فقط.

مراعاةُ الفجوةِ الزمنيَّةِ المعتادة بين التخطيط والتنفيذ

دلالةُ التقييد بالحال: ﴿صَفّٗاۚ﴾:

﴿صَفّٗاۚ﴾ في قوله: ﴿ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ﴾ حالٌ من ضمير الجماعةِ في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 256.

الـدلالـة على الـتـمـاسـك والنظام

﴿ٱئۡتُواْ﴾، أي: مصطفّين، وفائدةُ التقييدِ بهيئة الاصطفاف؛ لأنَّهُ أهيبُ في صدور الرَّائين، وأدخلُ في استجلاب الرَّهبةِ من المشاهدين، وأدلُّ على التَّماسُك والنِّظام[1]، والتنكير يفيد العظمة والكمال.

دلالةُ إفرادِ المصدرِ والقَيْد به:

يتمُّ الإنجازُ لمن التزمَ وداوم

لم يقل في السياق الكريم: (ثمَّ ائتوا صفوفًا)؛ لأنَّ ﴿صَفّٗاۚ﴾ مصدرٌ، والأصلُ في المصدر الإفرادُ، ثمَّ هو يصدقُ على الجمع والمفرد على السّواء، ولذا فقولُهُ: ﴿صَفّٗاۚ﴾ حالٌ مؤوَّلة بوصفٍ جمعيٍّ مشتقٍّ، أي: مصطفّين، أو منصوبة على المصدريَّة بفعلٍ محذوفٍ، أي: تَصطفّون صفًّا، والجملةُ مِنَ الفعل والمفعول المطلق حالٌ، ووجْهُ القيْدِ بالمصدر للمبالغة في لزومِهم لوصْفِ الاصطفاف مُدَّةَ زمانِ المناظرة، فيدلُّ على لزوم الوصف، كأنَّما استغرقوا في أصل الحدثِ، فصاروا كأنَّ معنى الصفِّ نفسَهُ متجسِّدٌ فيهم من شدَّة إتقانهم وانضباطهم[2].

موقعُ جملة الفاصلة ممَّا قبلَه:

قد فازَ بالمطلوبِ من غلب

جملةُ: ﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ من قِبَلِهم مؤكِّدٌ لِما قبلَهُ من الأمرين ﴿فَأَجۡمِعُواْ﴾ و﴿ٱئۡتُواْ﴾، أي: قد فازَ بالمطلوبِ من غلب[3].

بلاغةُ المؤكِّدات في جملة الفاصلة:

التحفيزُ على اجتماعِ الكلمةِ ووحدة الصفِّ

أُكِّدت جملةُ الفاصلة: ﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ بـ(قد) التحقيقيَّةِ، ومجيءُ الفعل ﴿أَفۡلَحَ﴾ على صيغة الماضي؛ للمبالغة في استنهاضِ همَمِهم وإيقاد عزائمِهم على مواصلة السَّعي وثبات القصدِ في تحقيق اجتماعِ الكلمة ووحدة الصفِّ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 305، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 537.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 442.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 537.

دلالةُ التَّعريفِ في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

النَّصُّ على الأيَّام المشهودةِ بالوقائعِ المجيدة

التَّنويهُ بالزَّمن في لفظ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ للدَّلالةِ على العهدِ، أي: اليومُ المخصوصُ الَّذي تقع فيه الأحداث، وهو يومُ المواجهةِ بين موسى والسَّحرة؛ لتعيين زمنِ الفلاحِ المذكور دفعًا لتوهُّم إطلاقه؛ ليدلَّ على أنَّهُ فلاحٌ دنيويٌّ؛ لأنَّهم لم يكونوا يؤمنونَ بأنَّ أمثالَ هذه المواقفِ ممَّا يؤثِّرُ في حال الحياةِ الأبديَّة، وإن كانوا يؤمنون بالحياة الثانية[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصول ﴿مَنِ﴾:

الموصولُ العامُّ يُساقُ في مقام الإبهامِ والعموم

آثرَ التَّعبيرَ بالموصول المشترك العام في قوله: ﴿مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾؛ لأنَّ المقامَ مقامُ إبهامٍ، فلا يُعرَف أيُّ الفريقين منهما سيعلو على الآخرِ، فأفادَ ﴿مَنِ﴾ الإطلاقَ والإبهامَ في الوعد.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة (استفعل):

مجرَّدُ السعي إلى الفلاح مؤذِنٌ بالفلاح

قوله: ﴿ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ على بناءِ (استفعل)، فيصحُّ أن يكونَ بمعنى (فَعل) والسين والتاء للتأكيد وتحقيق الفِعل، كـ(استجاب واستأخر)، فتكون بمعنى (علا)، ويصحُّ أن تكونَ السّين والتاء للطَّلب، فيكونَ (استفعل) على بابه وأصله، أي: طَلَبَ العلوَّ، وسعى له سعيَهُ، ولعلَّه على هذا المعنى أبلغُ في التحريض، حيث جعلوا الفلاحَ ثابتًا بمجرَّدِ الطلب والسعي للعلوِّ بغضِّ النظر عن إحرازه من عدمه، فكيف بمَنْ يعلو بالفِعل[2]؟

نكتةُ التَّعبيرِ بالاستعلاء:

النَّاسُ في طلَبِ للعلوِّ إمَّا بحقٍّ وإمَّا بباطلٍ

عبَّرَ بالاستعلاء في قوله: ﴿ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾؛ لأنَّ الاستعلاءَ قد يكون لطلب العلوِّ المذموم، وقد يكون لغيره، وهو - هاهنا - يحتملهما، فلهذا جاز أن يكون هذا الكلامُ مَحكيًّا عن هؤلاء القائلين؛ للتحريض على إجماعهم واهتمامهم، وأن يكونَ من كلام الله ﷻ، فالمستعلي موسى وهارون ﷺ ولا تحريضَ فيه، والظَّاهرُ الأوَّل[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 257.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 537، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 257.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 537.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والثلاثون،
سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 32 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-74-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 32 : المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-74-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4565158 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»